ان الحياة الاجتماعية قد انقلبت آيتها . فلئن قامت الحياة الاجتماعية قديماً على قوة العضلات والجرأة والبطولة المستندة الى السيف والحربة والمزراق ، وكانت جماً من خصائص الرجل ، فانها تقوم اليوم على قوة الآلة ، لا آلة الحرب وحدها ، بل آلة المصنع ، كما انها تقوم الى جانب المصنع على قوة العلم الذي يؤسس المصنع ويخترع الآلة ويوجه سياسة العمل . والأمم الحديثة إنما تعتمد في تشييد ذلك كله على ما يسمى « قوة الحشد » ونقصد به حشد جميع قوى الأمة ، ثم توزيعها على المرافق العامة توزيعاً يتوخى فيه التوجيه نحو الغايات التي تتطلبها الظروف ، أو تدعو اليها السياسة التي توجه فيها خطى الأمة .

ولقد شعرت الأمم بما يحفزها الى العمل على حشد القوى منذ أن بدأ الانقلاب الانتاجي الحديث ، إذ أخذت كل أمة تحشد من القوة ما يضمن لها التفوق في معركة التنافس التجاري والتناحر على الحياة . وإنما يتم الحشد بتعبئة قوى الأمة رجالاً ونساء .

بلغت هذه الحال قمتها العليا في الحربين الأخيرتين ، إذ بان جلياً أن الأمة التي تكمل حشدها تكون فرصتها في الفوز أكبر وانتصارها أضمن . ومن ثمت حتى الآن نرى العالم وقد أخذت كل أمة تحشد من قواها الانتاجية والمادية ، ما تتوخى به الفوز في المعركة المقبلة ، وإنها لمعركة واقعة لا محالة .

هذا في العالم المتحضر . أما في مصر التي تريد أن تلاحق امم هذا العالم ، وتأخذ بأسباب الحضارة الانتاجية الصناعية ، فلا يؤمن أحدها لقوة الحشد من أثر في القدرة على البقاء في عالم تستعد جنوده للمعركة القاصلة ، وإنما يراد بنا أن نؤمن بالتقاليد : تلك العنقاء الموهومة .

أما أولئك الذين يقولون بأن روسيا قد رجعت خطوات بعد أن طفرت الى حرية المرأة فيكادون لا يعرفون عن روسيا شيئاً . وإنما هم يلجؤون الى أقوال أشبه بأقوال ذلك الذي أتى بانسان وقال له كم عدد النجوم التي تظهر في الليل ، فلما عين رقماً موهوماً ، قال له أنت مخطىء . والواقع أن كليهما مخطىء ، ولا يعرف من الحقيقة الا وهماً يتراءى . أما الحق فهو ان الفتاة الروسية هي التي أنقذت ستالينجراد من السقوط في يد الالمان ، وبذلك ردّت جحافل الالمان عن الوطن الروسي . هي التي عبرت الفولجا في الظلام لتنقل الذخيرة والميرة للمدافعين عن مدينة الفولاذ . ولعلّ أولئك الواهمين لا يقولون أن ذلك هو السبب الذي نقم له الروسيون من المرأة فعملوا على ردها حريماً على الصورة التي يتمناها أصحاب التقاليد؟

اسماعيل مظهر